

ستون عاما بعد مؤتمر باندونج: العالم العربي من الشروق الى الغروب؟؟

د. نهى خلف

انعقد في مدينة 'باندونج' الاندونيسية منذ ستين عاما، أي ما بين 18 و 26 نيسان (ابريل) من عام 1955، احد اشهر المؤتمرات المحورية في تاريخ نهضة 'العالم الثالث'، والمعروف بمؤتمر باندونج، حيث كانت قد تبلورت منذ بداية الخمسينيات، أكبر حركة تحررية في التاريخ المعاصر تمثلت في استقلال جزء كبير من المستعمرات السابقة في آسيا و افريقيا و أمريكا اللاتينية، اي من الثلاث قارات الجنوبية، مما أدى الى تسميتها بدول العالم الثالث، كونها مهمشة اقتصاديا و تحتل مركزا متدنيا على الصعيد العالمي مما أدى الى تصنيفها في المرتبة الثالثة او الرابعة بالنسبة للفقر و التخلف، رغم تمثيلها لحوالي نصف الكرة الأرضية.

و مع بروز "المرحلة الأخيرة من ازالة الاستعمار" في منتصف الخمسينيات، بدأت الدول الناشئة في هذه المناطق، بالتعاون مع حركات التحرر المناهضة للإستعمار، تطالب بمكان لها علي المسرح الدولي و خاصة ان معظمها كانت قد نالت استقلالا شكليا فقط في الوقت الذي كان الاستعمار التقليدي لا يزال يخوض معاركه الأخيرة للإستمرار في الحفاظ على مصالحه و السيطرة على عدة بقع من العالم الثالث.

ورغم هشاشة وضعها على كل الأصعدة الاقتصادية و السياسية و الإجتماعية، إلا ان شعوب هذه الدول و البعض من قياداتها المستنيرة، وخاصة التي كانت قد لعبت دورا هاما في ثورات التحرر من القوى المستعمرة، بدت تحلم بمستقبل مشرق و و قد رأت بعض القيادات اللأسيوية و على رأسها جواهرال نهرو، رئيس وزراء الهند، إن قوة هذه الدول الناشئة يجب ان تستمد من وحدتها مع حركات التحرر في مواجهة ما تبقى من القوى الاستعمارية. و بايحاء من الدول الاسيوية التي كانت قد وجدت لنفسها إطارا موحدا منذ الاربعينيات، حيث كانت قد اجتمعت في نيو دلهي ثم في بوغور عام 1949 قام جواهرال نهرو الزعيم الهندي (1889-1964) و بدعم من اربعة دول اخرى التي شكلت نواة ما سمي بمجموعة "كولومبو" التي تكونت عام 1954 من أندونيسيا، الهند، بورما، باكستان، و سيرري لانكا، بمبادرة سياسية من أجل توحيد الدول الافريقية و الاسيوية عبر عقد مؤتمر عام يشمل كل الدول الناشئة و حركات التحرر. فمذ عام 1952 قام نهرو بزيارات متتالية لتوطيد العلاقة السياسية مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر (1918-1970)، وعند نهاية زيارته الثانية في عام 1953 صرح ناطق رسمي في مصر انه من "المحتمل ان تتحالف مصر مع الكتلة الاسيوية الحيادية في محاولة لوضع حد للاحتلال الامبريالي لقناة السويس"، و قد بدأت بالفعل في مصر عملية الترويج منذ عام 1954 للخمسة مبادئ المعروفة بمبادئ 'البنشي سيل' أو "التعايش السلمي"، التي كانت قد بلورت من قبل كلا من نهرو و شوان لاي (1889-1976) رئيس وزراء الصين الشعبية عند ابرام اتفاقية الصلح بينهما في عام 1954.

و في فبراير (شباط) عام 1955 و بعد زيارة أخرى لنهرو في القاهرة صدر بيانا مشتركا يوم 16 شباط مشيرا الى "وجود تطابق في وجهات النظر حول القضايا الدولية الكبرى"، ثم تم التوقيع على اتفاقية صداقة بين مصر و الهند و في يوم 6 نيسان 1955، وذلك قبل انعقاد مؤتمر باندونج

بأقل من اسبوعين.

و في نفس الوقت كان الزعيم اليوغسلافي الماريشال جوزى بروز تيتو (1892-1980) قد قام بزيارة اولى الى مصر لمقابلة عبد الناصر في يوم 5 شباط 1955 .

و من الواضح ان نشوء 'حلف بغداد' العسكري في الشرق الاوسط في 24 شباط (فبراير) عام 1955 بين بغداد و تركيا و باكستان و بريطانيا، قد أدى بالقيادة المصرية الإسراع في عقد تحالفات مع الدول الاسيوية و الأفريقية على اساس الحياد الايجابي من جهة و بانشاء مجلس قيادي عربي ثلاثي بين مصر و سوريا و اليمن من جهة أخرى.

و كنتيجة لكل هذه اللقاءات و للظروف السياسية المحيطة انعقد مؤتمر باندونج ما بين 18 و 26 نيسان (أبريل) في أندونيسيا برعاية رئيسها سوكارنو (1901-1970) -) و قد حضرت المؤتمر وفود من تسعة و عشرون دولة و ثلاثون حركة تحرر.

و من الجدير بالذكر انه بالإضافة للشخصيات التاريخية البارزة التي ترتبط أسماؤها بهذا المؤتمر مثل نهرو و سوكارنو و عبد الناصر و تيتو يمكن ملاحظة حضور شخصيات بارزة أخرى مثل أحمد بن بللا ك ممثل لجبهة التحرير الجزائرية ، و شوان لاي ممثلا عن الصين، و هوشي- مين ممثلا لجمهورية فيتنام الديمقراطية، و كوامي نكروما ممثلا عن غانا ، و مكاربوس الثالث ممثلا عن قبرص و انديرا غاندي ممثلة عن الهند، و علي صبري عن مصر، و الحج أمين الحسيني و أحمد الشقيري ك ممثلين لفلسطين و خالد العظم ممثلا لسوريا، و حسن بن يحيي ممثلا لليمن ، و شارل مالك ممثلا عن لبنان، و محمد فاضل الجمالي ممثلا عن العراق، بالإضافة الى ممثلين عن ليبيريا، سيرى لانكا، أفغانستان، والفيليبين، و تايلندا، و تركيا. و كانت من اهم اهداف مؤتمر باندونج العمل من أجل توحيد الدول المستقلة حديثا و حركات التحرر بهدف مواجهة القطبية الثنائية على المسرح العالمي المتمثلة بالدولتين العظميين أي الولايات المتحدة و الاتحاد السوفياتي التي بدأت تدفع بالعالم نحو مرحلة جديدة من الصراع، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، عُرفت بمرحلة الحرب الباردة، و هي مرحلة اتسمت بنشوء أحلاف عسكرية بقيادة كلا من الدولتين العظميين التي كانت تضم بفلكتها الدول الأضعف .

و من الجدير بالذكر ان مؤتمر باندونج كان أول رحلة للرئيس المصري جمال عبد الناصر خارج مصر بعد نجاح ثورة يوليو، و قد توطدت العلاقة بين تيتو و عبد الناصر بعد قيام تيتو بزيارة رسمية لمصر في نهاية عام 1955 و بداية عام 1956 ثم عبر بلورة تفاهم مصري يوغوسلافي في لقاء هام تم في 'بريوني' في تموز 1956 حيث قد انضم اليهما نهرو و تمت بلورة الاطروحات الاساسية لسياسة 'الحياد الايجابي' المبنية على التحليل المشترك التالي: "إن الانقسام الحالي للعالم عبر أقطاب قوية يؤدي الى استمرار الشكوك بينهم و يجب البحث عن السلام ، ليس بالانقسام و لكن عبر الأمن الجماعي على أساس كوني ، و عبر توسيع مجال الحرية و زوال سيطرة دولة على أخرى . و من الضروري التوجه نحو نزع السلاح للتخفيف من احتمال نشوب نزاع.... و الاستمرار في الجهود للتسريع في تنمية الدول الناشئة التي تشكل احدى المهام الاساسية لتأسيس سلام دائم و عادل بين الدول " .

و رغم بروز بعض الخلافات بين وفود الدول المرتبطة باحدي القطبين ، و خاصة بين الوفد الصيني المقرب من الاتحاد السوفياتي و الوفد الباكستاني المناهض للفكر الشيوعي، الا انه ساد بين الحضور روح من التفاهم أطلق عليها آنذاك "روح باندونج" ، و قد تمت صياغة عشرة مبادئ تُعد

ميثاقا للعلاقات بين هذه الدول ، ومن أهمها:- احترام حقوق الإنسان.- سيادة جميع الدول ووحدها.- عدم التدخل في شئونها.- تسوية النزاعات بالطرق السلمية.- تنمية المصالح المتبادلة بينها والتعاون.

و بسبب الاختلاف بين بعض الوفود و انحياز البعض منها لإحدى القوتين تمت بلورة فكرة عدم الانحياز. و قد ورد مصطلح 'عدم الانحياز' في خطاب ألقاه نهرو في ابريل 1955 حيث رأى في عدم الانحياز هوية مستقلة ودورًا إيجابيًا نشطًا ، وليس موقفًا سلبيًا إزاء التكتلات الخارجية.

وبالتالي بدأ التخطيط من أجل عقد مؤتمر أوسع يتم عبره إعلان تشكيل حركة عدم الانحياز.

ومع امتداد النصف الثاني من الخمسينيات تبلورت قيادة خماسية لحركة عدم الانحياز ضمت: نهرو، و تيتو، و جمال عبد الناصر، و سوكارنو، بالإضافة الى الزعيم الأفريقي كوامي نكروما(1909-1972) رئيس غانا، و مؤسس مؤتمر الوحدة الأفريقية، الذي انضم اليهم.

و تشير بعض التحاليل ان البعض من هذه القيادات قد استفادت من تصدرها لحركة عدم الانحياز في خدمة تطلعاتها القومية ؛ حيث أن تيتو وجد في الحركة منبرا هاما للإبتعاد عن الاتحاد السوفياتي، و نهرو وجد فيها دعما في خلافه مع الصين ، و لمواجهة ضغوط الأتحاف العسكرية الأمريكية في آسيا. أما عبد الناصر فكان يحتاج إلى مساندة عالمية ليضمن استقلال مصر.

و بين مؤتمر باندونج عام 1955 و مؤتمر بلغراد الذي انعقد في عام 1961 بهدف تدشين حركة 'عدم الانحياز' كانت الاتجاهات الايديولوجية قد تحولت من سياسة " الحياد الايجابي " التي كانت تسعى الى تغيير مجرى الامور على الصعيد الكوني الى سياسة "عدم الانحياز" الاكثر اعتدالا و التي تسعى الى عدم التحالف مع أي جهة دون الصدام مع أية من الأطراف و الاقطاب الاساسية.

وقد تم تأسيس حركة دول عدم الانحياز على أساس جغرافي أكثر اتساعًا، أثناء مؤتمر قمته الأولى الذي انعقد في بلغراد ما بين 1-6 أيلول (سبتمبر) 1961 حيث كانت الشعارات الاساسية التي ترفعها حركة عدم الانحياز هي تأييد حق تقرير المصير، والاستقلال الوطني، والسيادة، والسلامة الإقليمية للدول؛ ومعارضة الفصل العنصري، وعدم الانتماء للأحلاف العسكرية المتعددة الأطراف، وابتعاد دول حركة عدم الانحياز عن التكتلات والصراعات بين الدول الكبرى، والكفاح ضد الاستعمار بكافة أشكاله وصوره، والكفاح ضد الاحتلال، والاستعمار الجديد، والعنصرية، والاحتلال والسيطرة الأجنبية، ونزع السلاح، و عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول، والتعايش بين جميع الدول، ورفض استخدام القوة أو التهديد باستخدامها في العلاقات الدولية، وتدعيم الأمم المتحدة، وإضفاء الطابع الديمقراطي على العلاقات الدولية، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإعادة هيكلة النظام الاقتصادي العالمي، فضلا عن التعاون الدولي على قدم المساواة.

و تستمر حركة عدم الانحياز في الوجود حتى هذا اليوم ككتلة مؤثرة في عمليات التصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث تضم حوالي 120 دولة أي أكثر من ثلثي دول العالم و تعقد اجتماع قمة لها تقريبا كل ثلاث سنوات. و قد انعقدت آخر قمة لها في عام 2012 في ايران و ستعقد قمتها القادمة في هذا العام في فينيزويلا.

وإبان العقود الأولى من نشأة هذا التيار أي الستينيات و السبعينيات و حتى الثمانينيات من القرن الماضي، لعبت حركة دول عدم الانحياز دورًا أساسيًا في الكفاح من أجل إنشاء نظام اقتصادي عالمي جديد، يسمح لجميع شعوب العالم بالاستفادة من ثرواتها ومواردها الطبيعية، ويقدم برنامجًا واسعًا من أجل إجراء تغيير أساسي في العلاقات الاقتصادية الدولية، والتحرر الاقتصادي لدول الجنوب، و ذلك بدفع من القيادات التأسيسية للحركة و الذين كما وضحنا ينتمون تقريبا الى نفس الجيل الذي ترك بصمات هامة على الخريطة السياسية العالمية .

و لكن بعد زوال جيل القيادات الأولى المنبثقة من مؤتمر باندونج بدأت حركة عدم الانحياز تعاني من ضعف سياسي و فشلت في خلق تيارا ثالثا واضح المعالم و خاصة مع بروز تيار يسعى لمحاربة الشيوعية أكثر من سعيه لمحاربة الاستعمار و العمل من أجل التنمية الاقتصادية.

ولكن في نفس الوقت التي كانت دول العالم الثالث تقوم بمحاولات لإعادة تنظيم صفوفها ، كانت المؤسسة الحاكمة في الغرب و على رأسها الولايات المتحدة تخطط من من أجل ابقاء سيطرتها على العالم عبر استخدام عدة اساليب اقتصادية و سياسية لإفشال كل المبادرات التي تسعى الى نهوض العالم الثالث، ففي كتاب نشر في عام 1980 بعنوان "المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة" "The American Establishment" نجد التفسير التالي: "بينما كانت الحرب مستمرة(الحرب العالمية الثانية) ساهم تقرير ' هوفر' في جلب تعاون الشركات والأعمال من أجل بناء الركائز الثلاثة الأساسية للإقتصاد العالمي في مرحلة ما بعد الحرب أي: صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية (الجات) ... أن قادة الأعمال في الولايات المتحدة أثبتوا ليس فقط أنهم قد إعتنقوا "الفكر الدولي الأممي" "Internationalism" سياسيا وإجتماعيا، ولكن أظهروا أيضا أنهم على استعداد لإبداء كرمهم(المشروط) تجاه خصومهم السابقين مثلما كان الحال بالنسبة لحلفائهم وذلك في مصلحة السلام والتطور الإقتصادي".

و هكذا بدأت عملية ضخمة لاستيعاب دول العالم الثالث في الفلك الأمريكي و خاصة بعد ما بدأ ينمو شعور هذه الدول بقوتها، و هو ما أغضب الغرب و خاصة المفكر الأمريكي البولندي الشهير بريجنسكي الذي علق على النحو التالي:

" إن عام 1973 يمثل المرة الأولى التي تشن فيها دول العالم الجديد الأفرو آسيوي إنقلابا سياسيا " Political Reversal " على العالم المتقدم ... وبالتالي يمكن القول أنه إذا كان عام 1945 بداية النظام الدولي الحالي، فإن عام 1973 هو بداية نهايته ونأمل أن يكون بداية إعادة تجديده وتضحيته".

و بناء على هذا المنطق اقتبس لغرب مصطلح 'النظام الاقتصادي الجديد' الذي كانت قد بلورته دول 'الأوبيك' في أول الأمر، و من أهمها الجزائر التي طالبت "بنظام إقتصادي دولي جديد" (New International Economic Order (NIEO بعد أن بدأت تبرز الأوبيك على الصعيد العالمي كقوة جديدة تمثل دول العالم الثالث .

ويبدو أن أمل بريجنسكي والذي خطط من أجله قد تحقق منذ الثمانينات، حيث نجح العالم المتقدم في شن إنقلابه السياسي والعسكري والإقتصادي على تلك الدول التي غامرت في محاولتها لإعادة تنظيم نفسها، وذلك عبر إستخدام نفس المصطلح الذي كانت قد صاغته هذه الدول لمواجهة الغرب ، و لكن عبر تغيير فحواه و جوهره، من أجل محاربة دول العالم الثالث. فبينما كان يعني هذا

المصطلح من وجهة نظر الدول النامية مزيدا من المشاركة على الصعيد العالمي اصبح يعني من وجهة نظر الدول الغربية المصنعة ، مزيدا من الهيمنة على العالم. وذلك في نفس الوقت الذي قامت الولايات المتحدة بتطوير عدة مفاهيم عسكرية و سياسية جديدة لمحاربة تلك الدول مثل: 'إعادة الهيكلة' الاقتصادية و 'قوات التدخل السريع' و 'قوس الأزمات' والذي كان يهدف عبره برجنسكي أحداث خلل في النظام السياسي السوفياتي والقضاء على الإيديولوجية الإشتراكية التي كانت تهدد النظام الرأسمالي، و ذلك عبر التركيز على نقاط الضعف في النظام الاشتراكي و خاصة في مجال الحريات و حقوق الانسان، و تشجيع و دعم للتيارات الاسلامية المتطرفة من أجل محاربة الاتحاد السوفياتي في افغنستان حتى سمحت لها بالتكاثر و التشعب الى درجة لم تتمكن من السيطرة فيما بعد على تحركاتها .

كما عملت الولايات المتحدة على تحقيق أهدافها و مخططاتها عبر ضرب العراق عندما بدأت تظهر كقوة إقليمية في المنطقة العربية بالإضافة الى محاولات لاثارة خلا في التوازن السياسي في الجزائر، تلك الدولة التي كانت قد لعبت دورا أساسيا في دفع الاوبيك لمواجهة الغرب.

وقد تمكنت الدول المسيطرة على العالم اقتصاديا بضمان و تحصيل إستمرار هيمنتها عبر سيطرتها على الفكر والثقافة و من أهم أساليبها غير المعلنة والتي نجحت عبرها في توحيد العالم إيديولوجيا، هي عملية إحتواء النخبة السياسية في العالم الثالث و حتى قيادات حركات التحرر.

ففي هذا السياق اعترف نائب وزير الدفاع السابق التابع لنظام ايان سميث العنصري عن نجاح النظام العنصري في إستقطاب حركة تحرير الزمبابوي أينذاك قائلا: " ما حققناه هو ضربة معلم في ممارسة الدبلوماسية السياسية حيث لم يكن أحد يصدق أنه كان في إمكاننا يوما أن نقتع القيادات الثورية بالموافقة على كل ما نريده، فبينما كنا وحدنا أصبح لنا الآن امتياز الحصول على دفاع الوطنيين السود الشرعيين على مواقفنا السياسية".

و في نفس السياق عمل المخططون في الولايات المتحدة على تحقيق هيمنتهم معتمدين على معرفتهم لطبيعة نخب العالم الثالث وخاصة الطبقة الحاكمة في العالم العربي حيث قال أحدهم: "في أكثر الأحوال، أن النخب في العالم الثالث أقل التزاما منا بمبدأ المساواة الإنسانية كوضع عام للبشرية، وهم يتحدثون عن مزيد من المساواة بين الدول، و لكن في إطار أنظمتهم المتسلطة، يعتبرون أنهم فقط يجسدون الدولة".

وتستغل الدول المصنعة ضعف القيادات و النخب السياسية في العالم الثالث والتي تضع دائما مصالحها الخاصة أمام المصالح العامة لتحظى على حلفاء محليين لتنفيذ مخططاتها بشكل علني أو مبطن عبر إغراءهم بوهم 'الشراكة' و دفعهم للحصول على ثروات هائلة على حساب الأكثرية مما يجعلهم بالتالي من ركائز " النظام الدولي الجديد" و أدواته.

و بينما أصبح النظام العالمي الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفياتي يبدو وكأنه ذات قطب واحد أو كما يتصوره البعض وكأنه متعدد الأقطاب (الولايات المتحدة- أوروبا- اليابان). فقد رأي بعض المحللون أن الوضع العالمي لا يزال قائما على "قطبية ثنائية" ولكن "بطرق خبيثة، غير معلنة". حيث أصبحت 'القطبية الثنائية'، ليست بين " الشرق والغرب"، وإنما بين "الشمال والجنوب"، حتى بات الجنوب، يجمع "كل من لا يرى نفسه مشمولاً في آليات الشمال و في النظام الجديد بل

يرى نفسه مرفوضاً من هذا النظام، ومهمشاً فيه” مما يؤدي بهم إلى اللجوء إلى إيديولوجيات تطرف مختلفة (من أبرزها التطرف باسم الدين أو باسم العرق).

ومن أجل إخفاء حقيقة استمرار الفقر وتفاقمه على الصعيد العالمي قام منظرو الشمال ومؤسساته الفكرية بترويج أفكارا وإيديولوجيات تعتمدية تخوفا من عودة ظهور حركات مناهضة للهيمنة الاقتصادية الغربية ومن أهمها ترويج فكرة “نهاية عصر الإيديولوجيات” للفيلسوف فوكوياما (1989)، و نظرية “صدام الحضارات” للصقر الأمريكي صاموئيل هانتغتون (1993) و أخيراً نظرية “الفوضى الخلاقة” و “الشرق الأوسط الجديد” (2006) لكوندوليسا رايس و أعوانها من تيار المحافظين الجدد .

وقد أدت السياسات الغربية وخاصة عبر استيعابها القيادات السياسية المحلية الى دفع منطقة الشرق الأوسط الى مشاريع التسوية المنفردة بدءاً بنهاية السبعينيات و إبرام اتفاقية كامب ديفيد، و وصولاً الى بداية التسعينيات و إبرام اتفاقيات أوسلو التي تماشت مع تطوير مشاريع إقليمية مثل مشروع “السوق الشرق أوسطية” أو مسار بارشلونا “اليورو متوسطي” والتي تهدف جميعها لاعطاء إسرائيل مجالاً حيويًا لفرض سيطرتها الاقتصادية بالإضافة الى احتلالها العسكري، على دول المنطقة العربية.

واليوم بعدما أصبحت منطقة الشرق الأوسط، تخضع لأعظم عاصفة “تفتيت” لكيانها في التاريخ الحديث، و نعى هنا بمصطلح “التفتيت” عملية واسعة المدى، متعددة الأوجه والمستويات والمسارات، تخضع لعوامل وظواهر كونية من جهة وعوامل إقليمية ومحلية من جهة أخرى، و هي عملية متشعبة و شاملة الدمار، لأنها تمس بالعمق كل شرايين الحياة مثل الوباء فهي تمس الفرد والجماعات وكل البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية، فهل يمكننا ان نحلم بظهور قيادات جديدة تشبه نهرو و عبد الناصر و تيتو و سوكارنو ونكروما؟ قيادات تعمل من أجل التوحيد بدلاً من التفتيت؟؟ قيادات تتمكن من انقاذ ما يمكن انقاذه قبل الانهيار الشامل أم هل ان مصير العالم العربي و خاصة بعد انتصار الثورات المضادة “للربيع العربي” ان يبقى تحت سلطة المنجرفين مع التيار الغربي الصهيوني الذي يريد ان يستكمل هيمنته المطلقة على المنطقة بعد تدميرها؟؟

14Facebook

1Twitter